الباب التاسع

شخصيات ديكنز

لو تأملنا قليلا بعد فراغنا من قراءة روايات ديكنز لوجدنا أن الذاكرة تجمع عددا لايحصى من الشخصيات التى استطاع المؤلف أن يخلقها لكى تستولى على عقولنا، وتأخذ بالبابنا بسحرها وجمالها. ان ديكنز كان يهتم بشخصياته اكثر من اهتمامه بالموضوع أو بحوادث الروايه. إن الرواية خلقت للاشخاص. فنجدهم لايكفوا عن الحديث أو الحركة أو ربما نجد أنه من السهل أن ننقد هذه الشخصيات ولكنه من الصعوبة أن نخلق اشخاصا بمثل البراعة الفائقة التى اظهرها ديكنز فى خلق شخصيات رواياته، وحتى لو استطعنا أن نسرق هؤلاء الأشخاص فان ديكنز يستطيع أن ينتج مئات منهم. نشعر بأن شخصيات ديكنز تظهر لنا كأنها شخصيات تابعة لعالم أعلى واسمى من عالمنا الأرضى فهو يخلقهم لنا ولكنه لايعطيها فكرة إنهم سيموتون فى مجرى حوادث الرواية بل إنهم سيظلوا يعيشون الى الأبد حتى بعد أن ننتهى من قراءة الرواية. ان ديكنز ينجح نجاحا عظيما فى اظهار شخصياته الهزلية فى مواقف مثيرة للضحك وأما حين يظهرهم فى مواقف جدية فان اهتمامنا بهم يضعف إذ انه لاينجح فى ذلك.

اختلف ديكنز عن جورج اليوت بأنه لم يدخل فى رواياته تحليلا سيكولوجيا لاشخاص قصصه، الشىء الذى يعوق مجرى الحوادث فى روايات اليوت والتى تخلو منه روايات ديكنز مع أنه يصف مظاهر اشخاصه

وصفا دقيقا الا أن لكل شخص حركة خاصة أو طريقة مختلفة فى الحديث تميزه عن غيره فيأخذ المؤلف فى تكرارها حتى أنها تصبح أهم ميزة للشخص تذكرنا به ..

ان من الأخطاء التى يؤاخذ عليها ديكنز هى أنه يظهر لنا أشخاصه من ناحية واحدة فلا نعرفهم حق المعرفة ولكننا نجد أن فى الحيـــاة ذاتها لايستطيع الانسان أن يعرف غيره تماما لأن الانسان فى وسعه أن يتظاهر بمظهر يختلف عما يتظاهر به أمام غيرنا . وأيضا نجد أن فى روايات ديكنز قليلا مايتغير الانسان منذ ظهوره فى أول الرواية الى آخر الكتاب وأحيانا يحدث التغيير بطريقة لاتهمنا كثيرا لكى يعطى المؤلف فرصة الوصول الى خاتمة معينة .

لقد قيل أن ديكنز يعتبر رساما كاريكاتوريا ، ولكنه فى ذلك يبنى شخصياته على الحقيقة ثم يمزجها بخياله فتكون النتيجة أن يقدمنا الى شخصيات لها اطوار غريبة أو مميزات شاذة تميزها عن الأفراد العاديين . إننا نعجب بتلك الشخصيات إلان ديكنز استطاع أن يخلق اشخاصا روائيين هم أشخاص عرفهم المؤلف فى حياته واستطاع أن يستخدمهم فى كتبه وانه من واجب الروائى الا يخلق اشخاصا مطابقين للواقع وانما يتخذ الواقع ويستخدم خياله فى خلق تلك الشخصيات التى تمتاز بطابعها الخاص .

يمتاز ديكنز عن غيره بأنه استطاع ان يصور كثيرا من الشخصيات المختلفة فى كتبه ولو أنه احيانا مايتشابه بعضها مع بعض إلا أن كلا من اشخاص كتبه له طابعه الخاص فنجد فى رواياته الطبقات الارستقراطية كما نجد الطبقات الفقيرة والمتوسطة ممثلة فى شخصياته إلا ان ديكنز بالنسبة لأنه

عاش قريبا بين الطبقات الفقيرة ووقف على أحوالها فهو يحسن وصفها اكثر من غيره .

لم يحب ديكنز الأغنياء ولم يحاول فهمهم ولذا فهو لايحسن تقديمهم لنا وأما الطبقات الفقيرة فقد استولت على كل مشاعره لما كانوا يعانونه من فقر وبؤس وآلام أراد تخليصهم منها برائع آيات قلبه وقد اهتم بالمجرمين والأشقياء وتأثيرهم على المجتمع ولكن أهم من ذلك فقد نجح فى وصف الأسباب التى دعت الى وجود مثل هؤلاء الأشقياء فمثلا يعجب القارى بأمثال سيكس وفاجن وغيرهم .

يقول ديكنز فى كتابة « صديقنا الذى يبادلنا الصداقة »لو كان المجرمون المشهورون يخبروننا بالحقيقة مع العلم بأنهم لن يستطيعوا ذلك لكونهم من كبار المجرمين — فانهم نادرا مايطلعوننا على مجهوداتهم للابتعاد عن الجريمة انهم يجاهدون نحو الجريمة بكل قواهم »

ان بعض هذه الأشخاص لايظهرون لنا كأنهم اشخاص واقعين ولكنهم بالنسبة لديكنز حقيقيون فهو يشاركهم فى بكائهم كما يشاركهم فى أفراحهم . لقد قيل ان شخصية « مسز جامب » «وسام وللير وتونى وللر يمثلوا روح الخيال وانهم مفخرة من مفاخر الكوميديا الواقعية التى أبعدمنها كل الصفات التى تشوب الأشخاص الواقعيين

ان ديكنز فى تصوير أشخاصه يبرهن على قوة الملاحظة للجمهور . لقد ترك لنا فى كتابته تصويراً لاشخاص على حقيقتهم يوجدون اليوم فى أماكن من المعمورة لم ينعموا بالتعليم أو التهذيب . ولكنهم يمتلكون ذكاء فطريا وفكاهة موهوبة . كان ديكنز يسير فى طريقه ينظر الى الجمهور فيرى غرابة

الحياة فى الاشخاص الذين يسيرون فى طريقه ولو نظرنا ذات يوم الى المئات التى تسير فى الطرقات فاننا نستطيع ان نجد بينهم كثيرا من الشخصيات التى أدخلها فى كتبه

يوجد فى روايات ديكنز عدد من الشخصيات المختلفة فنرى كل نوع من الاشخاص وكل يحتل نفس المركز الذى يحتله فى حياته اليوميه وأحيانا توجد الشخصية لذاتها وهى لاتقوم بأى عمل مهم بالنسبة للرواية. فمثلا مسز جامب لو أبعدت من كتاب « مارتن شزلويت» فان حوادث الروايه لا تتأثر من جراء ذلك وانما مسز جامت هى شخصية مهمة لأنها تعجبنا بمرحها وتفكيرها الساذج وحركاتها فهى تعجبنا وتحبب الانسان فى قراءة المواضع التى تظهر فيها أكثر من مرة. فاذا نسينا الرواية كلها فنحن لا يمكن أن ننسى مسز جامب والمستر ميكوبر فى رواية دافيد كوبر فيلد الذى يحتل نفس المكانة التى تحتلها مسز جامب، ونستطيع على سبيل المثال أن نذكر كثيرا من الشخصيات التى يذكرها الانسان حتى لو نسى كل شىء آخر. وبعض شخصيات ديكنز التى تحوز اعجاب القارىء لاتظهر كثيرا فى الكتاب ولكننا مع ذلك نذكرها على الدوام والسر فى ذلك هو أن هذه الشخصيات أجاد ديكنز تصويرها على طبقتها مضافا الى ذلك طريقته الكاريكاتورية التى كانت تزيدها جمالا.

ان العالم لو طلب منه أن يذكر الشخصيات الروائية التى حازت اعجابه فانه سيذكر على رأسهم مسز جامب، وميكربر وسام وللر ومستر بيكوبك وشارباند ومئات آخرين كلها مأخوذه من كتب ديكنز الخالدة التى لاتزال تعيش والتى لن تزول من ذاكرة الانسان لأنها تعبر عن صميم الحياة وتشهد بعبقرية فذة ..

عاش ديكنز وترعرع وسط الاحيـــاء الفقير ووقف على

أسرار أهلها وشاركهم عواطفهم التى جعلته يحارب من أجلهم ألى ان جاءه النصر . وبقلمه هذا استطاع أن يخلق شخصيات خالدة ستظل على وجه الأرض لأجل إسعاد البشر ومهما قدم العهد على المشاكل الاجتماعية التى حارب ديكنز من أجلها فان تلك الكتب ستقرأها الأجيال القادمة فتمجد ذكرى ذلك الكاتب الاجتماعى العظيم الذى خلق شخصيات كانت على مر الدهور سر سعادة وهناء لملايين من الناس فى جميع بقاع الأرض من غير مغالاة ...

obeikandl.com